لِعينيك يا أبي

بقلم: فاطمة محمد الدفعي

كيف حالك يا أبي ؟!

إنني وحيدة جداً من بعدك.
ربما هذا هو حال الأموات... بعد أن تصعد الروح يبقى الجسد الميت وحيد منسي تماماً.

أبي إنني أحترق بدونك سوف أخبرك عن حالتي بعدك؛ و التي لا يعرفها أحد.

هل أخبرك عن قلبي الواقف الذي لا ينبض؟!

سوف أكلمك عن حال قلبي المهجور من بعدك يا أبي عن ذاك القلب الذي أنهكه التعب، ودخل الصدى لكل جوانبه؛ فتأكل شيئاً فشيء...؛ حتى كاد أن يهلك.
سأخبرك يا أبي قصة قلب قتله كبريائه اللعين.

ما ذنب ذاك القلب الذي يمتلئ، ويفيض، ويريد أن يتكلم؛ يريد أن يبكي أمام الجميع... يريد أن يقول لهم أنا حقاً تعبت... لكن تخنقه تلك العبارات؛ في صمت،

وتلك الدموع التي لا ترحمه عندما تلمح أحداً يقترب منه تختفي، ولاتخرج بعدها أمام أحد... كيف يمكن أن يتحمل كل ذلك؟! لكنه تعود على نفسه فقط...؛ تعود أن يخفي دموع الانكسار، والتعب لنفسه فقط... تعود أن لا يشكوا لأحد؛ تعلم أنهُ لا يجب أن يتألم، وإن تألم؛ فليصمت؛ وليتألم بصمت، أو ليمت بصمت؛ فلن يفهم أحد الضجيج الذي داخله...؛

ماذا عن قلب منهار، ويتمنى أن يعيش انهياره بسلام ...؛ لكن قسوة العالم جردته من أبسط حقوقه ... حتى أصبح الانهيار لا يليق به، والحزن لا يجب أن يزوره، وأن زاره فهو يتخفى؛ كاللص الذي يسرق ما ليس له.

أن قلبي مكسور لهذه الدرجة يا أبي؛ لدرجة أنني أسرق الحزن سرقة عندما أكون لوحدي، وبعيدة عن الأنظار ؛ فأخفي الدموع كي لا يراها أحد... إنه الخوف من أن يلحظ أحد ذاك الانكسار.

لقد قدمتني قرباناً للحزن عندما رحلت عني.

أبي لقد قالوا لي لايتيم إلا يتيم الأم أما الأب فرحيله أقل ضرراً...
لكنهم لايعرفوك، ولايعرفون حبي لك، ولايعرفون من أنت بالنسبة لي ...
عندما يكون مجرد أب رحيله يكسر الأبن كسر لا يجبر أبداً؛ فكيف عندما يكون أب، وأم، وأخ، وأخت، وحبيب ، وصديق، وكل شيء كان فيك وحدك .
كنت بالنسبة لي حياة كنت أنت الروح لجسدي، وعندما ماتت الروح ظل الجسد بلا معنى، ولاحياة ..فقط يراقب كل شي ولايشعر بشيء.

ماذا قالوا لي عنك.. قالوا: أنت تتأذى من دموعي يا أبي لو كانت دموعي تؤذيك لما تركتني.. أن الله -عز وجل- أرحم بكَ مني؛ لذلك عرفت أن دموعي لن تؤذيك، وإلا لما أخذك مني... فلله الحمد على ما أخذ.

كنت أخاف من الموت بشدة؛ بل أرتعش حين أتذكر القبر

، وظلمته، وبعد أن ذهبت إليه قبلي... عرفت أنه لن يُخيفني؛ لأنك هناك، وأي مكان أنت فيه يا أبي هو آمن بالنسبة لي حتى لو كانت المقبرة ط.

قالوا لي أني لن أتغير، وأنت قلت لي أني لايجب أن أتغير، وبعد أن رحلت أنت... تغيرت أنا؛ لأن الكل قال لي يجب أن تتغيري، ولم أجدك يومها؛ لتقول لي أنك تحبني كما أنا.

كنت أرى نفسي في عينيك يا أبي، وعندما أغمضت تلك العينين انطمست شخصيتي، وأصبحت لا أرى نفسي.. ربما لم أختفي... لكن انعكاسي هو الذي اختفى ... لم يعد لي أنعكاس... أصبحت بلا هوية.

ماذا يفعل من لا انعكاس له؟!

ماذا يفعل من تركه ظله في وضح النهار؟!

كيف يعيش من لاظل له بين عالم يفتخر بالظلال؟!

لماذا لم تعلمني كيف أعيش بعدك يا أبي؟!

لماذا لم تعلمني كيف أصنع انعكاسي بدونك؟!
وكيف أحتفظ بظلي بعدك؟!

ماذا يفعل من لاسند له؟!
ليس لهُ إلا التغاضي.

اليوم كبرت يا أبي.

لقد كبرت في هذه سنة أربعين سنة.
تخليت عن عنادي، وعصبيتي.. حتى تخليت عن جرأتي، ولم أعد افرض رأيي؛ بل لم يعد لي رائي.

بعد موتك تحملت مسؤولية حياتي؛ لأن لأحد سيتحمل طيشي، وعنادي.

هل أخبرك سراً لم أعد اخاف من شيء.
أنا التي كنت أخاف من ظلي ..لم أعد أخاف شيء بعد موتك يأبي... لم يعد الظلام يُخيفُني .

كنت عندما أخاف ابحث عنك، وحين أجدك شعر بالأمان ؛ لكني الآن لا أجدك في خوفي؛ فتعودت على الخوف ، ولم يعد يُخيفُني.

ليتني ذهبت معك لأني أحترق من دونك

أحتاج أن أرتمي في حضنك وابكي
أبكي.. حتى يرتاح قلبي.

اشتقت إليك كثيراً.... متى نلتقي وينتهي عذابي ؟

كنت أميرة في مملكتك يا أبي .
وعندما رحلت أنت تدمرت المملكة، وضاعت الأميرة
إلى غير رجعة.

أشتقت لضحكتك، ومفعولها السحري في علاج كل أوجاعي.

كانت اروع ماخلق ربي ...؛ أنها ضحكة أبي
أنها علاج لروحي يا أبي.

لم أجدها في أي صيدلية بعد أن رحلت...؛ أخذتها معك .

من النادر جداً أن تجد ضحكة تصبح دواء لكل داء؛ لقد كانت ضحكتك أنت يا أبي.

ماذا بعد صدر رحب واسع جداً كسعة البحر هادئ ، وحنون، وصافي، وعميق، وينسينا الهموم بهدوئهُ الأنيق، ودفئه الرائع.

أبي كان أحد عجائب الدنيا؛ بل وأعجبها، وأجملها؛ ولأنه كنز ثمين، ونادر جداً دفن في التراب؛ فالكنوز تدفن دائماً؛ لتبقى في آمان.

عينيك يا أبي كانت بريق أمل ... شعاع الحياة كان يخرج من عينيك... كانت تضيء الظلام بتوهجها

الساطع.

كل الكلام لا فائدة منه؛ إلا كلامك يا أبي كانت فيه كل الفائدة.

كان الصمت من ذهب إلا كلامك يا أبي كان هو الذهب.

كلهم كانوا أصفار، وكنت أنت العدد؛ الذي يحدد قيمة الصفر.

كانوا الظلام وأنت النور؛ كأنهم الليل، وأنت النهار.
لكن منهم؟ أنهم الذين تعرفت عليهم بعد رحيلك... لم أعلم بوجودهم، وليتني لم أعلم.

كنت قمر الليالي الجميل، وكنت شمس النهار الساطعة
... كان في وجهك هدوء الليل، وفي حضنك دفا النهار
... كنت أنت الربيع المزهر يا أبي.

كنت أنت الوطن، ونحن اللاجئين، واليوم أصبحنا في المنفى بعد أن مات الوطن.

هل يموت الوطن؟ لا بل هو الذي يهب حياته لأبنائه ليعيشوا أحرار من بعده.. أننا إما أن نعيش في ذاك الوطن، أو أن يعيش هو فينا.

قالوا لي أن الأرواح تتحول فراشات وتزور أهلها كل فترة ... لا أؤمن بتلك الشعوذات؛ لأن لو تحولت الأرواح لشيء..؛ لكانت روحك يا أبي هي الشمس التي تنير الكون، وتبدد الظلام، وتعيد له الدفئ والأمان.

فصول السنة أربعة...؛ لكن فصولي أصبحت أثنين... ربيع ذهب معك يا أبي، وشتاء أتى بعدك.

كيف حالك ياأبي؟!

صباحي لم يُشرق بعدك... اختفت الشمس منه
... حتى عقارب الساعة أصابها الملل، وأصبحت تمشي بكسل شديد.

تلك النسمات الخفيفة كانت لطيفة جداً؛ عندما كنت أنت معي؛ لكنها أصبحت تأتي، وتمر في فراغي؛ فتزيد الجوا وحشة، وخوف.

كانت الزهور تتفتح عندما تراك، واليوم أصابها الذبول لأنها لم تعد تتغذاء على النور المنبعث من وجهك... مثلي تماماً.

كانت العصافير تغير لحنها حين تسمع صوتك؛ لأن صوتك له طرب مختلف في تلك الطبيعة الخلابة... كان جزء من أنسجامي معها.

ذهبت يا أبي ولم تأخذني معك!

هل خفت علي من الموت، ولكنك حكمت عليِّ بالعيش دونك، أدخلتني سجن انفرادي إلى الأبد ... كان فيه تعذيب مستمر؛ لكي أعترف بذنب حبي الكبير لك ، وشوقي الذي أخفيه عن الجميع.

لقد انقضى العام الأول من فترة العقوبة؛ لكن لا رحمة عاشق مشتاق، ولا تخفيف على مذنب، وظالم بحق نفسه من العقاب، ولا نهاية للحكم المؤبد إلا بالموت.

أبي أنت لم تكن شخص عادي أبداً .

لقد كنت شيء نادر جداً.
كنت بلسم لكل مجروح، وسعادة لكل حزين... كنت سكينة لمن ضجت به الحياة، وراحة لكل متعب... كنت أب لكل يتيم، وأخ وصديق لكل وحيد، وسند لكل مكسور، وجبل لمن عصم إليه نفسه.

كانت الحكمة ضالتك والحنكة وسيلتك... كان لبسمتك صدى في كل قلب عرفك، ولكلماتك رنين في كل أذن سمعتها...كانت طلتك تعيد الروح للجسد العليل.

(كنت) وليت هذه الكلمة لم توجد في اللغة العربية.

تباً كم أصبحت أكره كلمة (كان) التي أرتبطت بأسمك يا أبي.

عند الكل أنت أصبحت أسم لكان... اسم لفعل ماضي.

لكن عندي أنت أسم لكان، ومازال، وأنَّ.

أنت الماضي الذي أخذت منه كل العلم، وأنت الحاضر الذي اجتهد فيه، وأنت المستقبل الذي أعمل لأجله.

فهل تكفيك أفعال الزمان التي ربطتها بك وحدك يا أبي؟!
أن كانت تكفيك فهي لاتكفيني ربما لو كان بيدي لأضفت لكل ساعة ساعة ثالثة عشر؛ ليدعو لك فيها الجميع... إلزامية بدون جدال.

ولو كان بيدي لأضفت يوم ثامن للأسبوع يستريح فيه الجميع من تصنع السعادة في الحياة؛ ليشاركوني حدادي عليك.

لو كان بيدي لقتلت الضحك؛ لأن لم يعد له معنى بعد رحيلك.

ولسممت السعادة، وجعلتها تموت بالبطيء؛ لأنها لم تحترم رحيلك.

ربما لكنت توجت الحزن ملكاً على الأرض لعينيك يا أبي ، وجعلت الدموع هي من تكتب الدستور الذي سيحكم به الحزن علينا.

كنت سأجعل الخيانة تقتل التفاؤل لأنه خانك، وجاء يكذب علينا، ويقول: أن كل شيء سيكون بخير، وأن في حزننا عليك خير.

لو كان بيدي لكنت انتقمت من الأمل، وأطفأت شرارته الدافئة التي تنبعث بعد رحيلك... بثلج اليأس البارد القاتل عقاباً له على تمرده.

لكنت حبست النور الأمل عن الناس، واخرجت الظلام اليأس من حبسه؛ ليعرفوا أن رحيلك لم يكن أمراً عادياً أبداً.

كنت سأقرر على الطلاب قراءة سيرتك فقط في كل المدارس، والاقتداء بك.

كنت سأجعل كل الوظائف لأجلك، وكل عمال العالم يعملون لك فقط.

هل هذا يكفيك يا أبي

أن كان يكفيك فهو لايكفيني

أنني أشعر أن حزني عليك لايوفيك حقك، ودموعي قليلة جداً أمام عطائك لي.

لو كان بيدي لجعلت دموعي تُغرق الناس لكني خفت أن يموت من لايُجيد السباحة؛ فأُصبحُ أنا القاتلة.

لو كان بيدي لصرخت بكل قوتي؛ لكي أخرج قهري عليك ، وحسرتي لكني ترددت..؛ لكي لايُصعق من في الأرض كلهم فأكون مجرمة بحقهم.

كنت سأنشر ظلام قلبي الذي اجتاحه بعد رحيلك ، واجعله يجتاح العالم.

كنت أريد أن حبي لك، وأعبر لك عن شوقي
لكن الحروف أمامي قليلة، ولن توفي لشعوري حقه
والكلمات كلها مبتذلة، ولا تعبر عن عن ما أريده
لو قلت أني أحبك يا أبي
فهذه خيانة لمشاعري، وتزييف للحقيقة
فكلمة حب من حرفين لن تغني عن تعبيري
ولو قلت أني أشتقت إليك يا أبي
فكلمة شوق لا تعطي المعنى وضوحاً
ولا تُطفي نيران قلبي بل تزيدها اشتعلاً
ثلاثة حروف كيف تصف لهفة الملهوف
ولو قلت لك أني أعشقك يا أبي
فهذا ليس من أدبي وأخلاقي
فالعشق ليس لقلبك الراقي
إنها كلمة تحمل في حروفها المسمومة
حبال تخنق بها المشاعر فتقتلها كما تقتل العشاقِ

لعينيك يا أبي.

كتبت الكثير من الحروف المُبعثرة لك يا أبي، وأعلم أنك لن تقرأها، ولكن لعلي أرتاح من حمل كل هذه الأشواق بعد أن أنثرها على أوراقي؛ لتحملها عني.

أن الأبن يرث أباه بعد موته إلا أنت يا أبي.

أنت الذي ورثتني بعد موتك؛ لأنك أخذت كل شيء مني..لقد جعلت، وقتي، وعملي كله لك أنت ياروحي الغالي.

لأننا لسنا أب وأبن فقط .... بل نحن اقرب بكثير .. نحن روح وجسد... الروح تحت التراب، والجسد مازال يمشي فوق الأرض.

ولوعشت فوق عُمري عُمراً أخر لجعلتهُ بكاملهِ لِعينيك يا أبي.

لقد أنتهت مرحلة الحزن كما أخبروني..
لكن متى تنتهي مرحلة الشوق لم يُفتوني فيها

هل نسيوها أم أنهم لا يعرفون لها نهاية...
بل همْ يُدركون جيداً أنها تزداد؛ لكنها لاتنتهي.

أين أنت الآن يا أبي؟!

لقد رحلت إلى الأبد، أو إلى قيام الساعة... لايمكن أن يكون الموت هو الحكم المؤبد علينا.
لأننا لم نعشْ معاً كثيراً، ومازال هناك الكثير لنفعله معاً ، ومازلنا نشتاق لبعضنا كثيراً.

لذلك لم تكن نهايتنا الموت ..؛ بل أن لنا لقاء طويل سوف يُنسينا مُر الفُراق.

هذا هو الأمل الذي دائماً يتحدثون عنه..؛ هذا هو الغد الجميل بالنسبة لي. ..؛أنهُ لقائُنا يا أبي.

أن الفُراق يا أبي يكون في الحياة الفانية... لكن اللقاء سيكون في الحياة الباقية... سيكون لقاءٌ أبدي... لذلك قلبي مطمئن يا أبي.

لعينيك يا أبي

أنا لم أنكسر بعدك كما يقولون...؛ لأنك أعطيتني قوة كبيرة.

تركت ليِّ الأمل الكبير... الذي لم ينطفئ بسبب ظلام الحياة بعدك ... ربما نحن لم نفترق، ولكننا ابتعدنا عن بعضنا قليلاً، وسوف نعود.

لعينيك يا أبي تحملت مر الفراق وأبتسمت دون

أنكسار...؛ لأنك تستحق يا أبي.

هل تعرف يا أبي كلهم عزوني فيك، وقالوا لي سيعوضك الله لاتحزني.
قلت في نفسي وأنا الواثقة بربي... هل لأبي عوض يالله؟!
ظننت أن لايوجد عوض لمن فقد أباه سنده، وحسه في الحياة؛ لمن أصبح لاشيء بعد أن فقد مَن كان كل شيء ... لم أصدقهم لكنهم هذه المرة صدقوا.

لقد عوضني ربي ياأبي لاتخف عليِّ؛ فالله عزوجل لم ينساني، ولن ينسى ضعفي وحزني.

كان عوضه جميل جداً ... كان مدهش؛ فهو الكريم العظيم.
لقد جبر قلبي جبراً عظيم.

لقد نزع الدنيا من قلبي بطريقة لم تؤلمني؛ بل كانت مريحة جداً.
بعد أن قلت أنا أصبحت يتيمة يارب..؛ أخذ قلبي، وأدخله في رحمته، ولطفه الخفيِّ.

لقد جعلني من أهله، وهل كنت أحلم بنيل هذا الشرف العظيم؟ لكنه هو الكريم الرحيم.

لقد أخذني إلى طريق القرآن... كانت آيات عظيمة ؛ أخرجت من قلبي ذاك الصدى، وأعادت بناءها بناء قوي متين، لايتزعزع من جور الحياة، ولاتؤثر عليه مرارة الكلمات.
كانت نقطة تحول في حياتي؛ فبدأت الحياة تبتسم لي ، ولا أبالي لها، ولاتهمني إبتسامتها، أو غضبها ... سرت إلى ربي بكل كسوري، وسلمت نفسي للقرآن.

كنت كالظمئان في الصحراء... الذي يبحث عن قطرة ماء ؛ ثم أعطاه الله واحة كاملة.
كأنها قطعة مصغرة من الجنة.
لكي تطئن فقط يا أبي.

ودعاً يا أبي... لن أقول وداعاً... بل إلى القاء أيتها الروح الطاهرة... كتبت لك الكثير، والكثير، ولكني لم أستطع ترتيب الكلامات.. عجزت عن ترتيبها، وعجزت عن أعطائها حقها في التنسيق، والتدقيق ... لكن للحديث بقية... وسيكون للكتاب بداية، ونهاية، وصفحات غزيرة لعيناك يا أبي ... وكله بإذن الله تعالى .